المسرح على خشبة الحياة (1 من 2)

هل من سبيل آخر لاسترداد وعي مهزوم وكرامة ضائعة؟

❑ سعيد سعادة*

سئل المسرحي فيكتور سلافكين: لم يهتم الجمهور الروسي بالمسرح المعاصر هذا الاهتمام الكبير، ولم تكاد المسارح تغص بالمشاهدين في موسكو وبطرسبرغ، مع أن للناس هموماً أخرى تشغلهم؟ فكان جوابه سؤالاً بسيطاً وهو: هل هناك سبيل سوى هذا (المسرح) لاسترداد وعي جماعي مهزوم وكرامة ضائعة.

بالرغم من ظهور فن السينما في بدايات القرن الماضي، ثم تبعه بزوغ فجر الفن التلفزيوني قبل أكثر من خمسين عاما مضت، ومدى تأثير كل منها على قطاع كبير من الناس؛ بكافة شرائحهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية والفكرية بشكل عام، وانسحاب جزء غير قليل من الجمهور المسرحي، ليصبح - هذا الجمهور - محسوباً على الشاشتين: الكبيرة والصغيرة، بفعل الانبهار والدهشة بهذين الاكتشافين الجديدين.

بالرغم من كل هذا، ما زال الفن المسرحي، يشكل احد أهم المرتكزات الهامة في حياتنا، كفن له دور فاعل ومؤثر، في كثير من قضايانا وأحوالنا المعيشية، على اختلاف أنواعها وتعدد توجهاتها: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية....الخ. وذلك لما يحوي - هذا الفن - في داخل عناصره الفنية، والذي يشكل كل عنصر منها على حدة فنا قائماً بذاته، بدءاً بالنص المسرحي القولي؛ كشكل متعلق باللغة وأساليبها التعبيرية، ومضمون مختص بالفكرة والحدث، ثم مروراً بفن الأداء والتمثيل؛ الحواري بشقية: الديالوجي والمنولوجي، والأداء الصامت (البانتوميم)، إضافة إلى الفنون التكميلية التي لا تقل أهميتها من بقية العناصر الأخرى في إنجاح العرض المسرحي، من إضاءة وصوت وديكور...الخ، وصولاً إلى إبداعية المخرج وحرفيته في تجسيده للعرض المسرحي، من خلال أسلوبه الإخراجي ورؤيته الفنية في إخراج هذا العرض لجمهور المتلقين. إذن الفن المسرحي عالم متشابك من الفنون، يكتنز في داخله كثيرا من مقومات الفكر وأبعاد المعرفة الثقافية هذا من جانب، ومن جانب أخر يحمل في ثناياه كما هائلا من المعطيات التربوية والتعليمية التي تلزمنا و نحتاجها نحن كأفراد وجماعات على حد سواء، وذلك من أجل النهوض بالجنس البشري نهضة لا يعتريها أي عيب أو نقص، ولا يشوبها أي سوء أو شائبة، ونحن نسير قدماً عبر مسيرة الرقي والتقدم الحضاري في مجتمعاتنا، والذي بدوره ينقلنا - هذا الفن برسالاته التربوية والثقافية - كشعوب وأمم، بخطى ملؤها حيوية مفعمة بالثقة والثبات. يكون قوامها الإصلاح والتغيير إلى الأفضل، لنعبر إلى آفاق الرفعة والسمو، وصولا إلى مملكتي السعادة والكمال في العيش فوق هذه الأرض.

عناصر بناء الفن المسرحي

مما لا شك فيه، إن الفنون بشموليتها لا تقوم وتنهض في مخيلة الفنان وعقله بشكل اعتباطي، وبمحض الصدفة العمياء، أو لمجرد إن من يريد الاشتغال بأي فن وصناعته - إن جاز لنا القول بذلك - يكفيه أن يمتلك أداة للتعبير مثل: قلم يكتب به، أو آله موسيقية يعزف عليها، أو ريشة ومجموعة من الألوان يرسم بها، أو إلى ما هنالك من الوسائل التعبيرية الأخرى التي يتوسل بها الفنان في بناء عمله الفني. وإنما يجب أن تكون هذه الأدوات التعبيرية مدعمة بعوامل أخرى، تدخل في صميم الفن وإبداعه؛ كالعقل السوي، والثقافة الكوكتيلية المتعددة المشارب، وتراكما للخبرات والتجارب الحياتية، إضافة إلى واقعا ما، أو حدث معين يؤثر في هذا الفنان، لينقله لنا عبر هذه العوامل بشكل منطقي واع، ذي ملامح اقناعية على مستوى الشكل / الأسلوب والفكرة / المضمون. والمسرح كفن - مثل بقية الفنون الأخرى - إذ يخاطب المجتمع بكافة شرائحه الإنسانية، وذلك عبر اشكال من العروض المتنوعة التي يقدمها لجمهور المتلقين، يجب أن يكون متسلحاً بعوامل البناء سالفة الذكر، حتى يستطيع إيصال رسالته دون نقص أو تشويه للهدف المرجو منها، والتي يكون أدناها عملية التأثير في نفسية المتلقي، بحيث يصبح هذا الفن آلية لإصلاح المجتمع أو تغييره إلى الأفضل. يقول فرانك هواتينغ احد كتاب المسرح الأوروبيين في كتابه "المدخل إلى الفنون المسرحية": إن فن المسرح يعتمد في جوهره على حصيلة المعرفة في شمولها العام ويعتمد على قدرة الإنسان على الاستكشاف والتعجب والتأمل، فالمسرح - كمحاكاة للحياة - يضم تقريبا كل ما تضمه الحياة، بما في ذلك الكثير مما تحمله من فوضى واضطراب.

أميل زولا

نستنتج من كلام هواتينغ أن عالم المسرح يستمد نبضه والهواء الذي يتنفسه من عصارة أذهاننا الفكرية (المخيلة العقلية)، ومن المشاهدات الحية التي نشاهدها في واقع حياتنا اليومية؛ بجميع أشكالها وعلى اختلافاتها المتباينة؛ وما لها من انعكاسات في نفسياتنا وأرواحنا. فالفن المسرحي - إذن - يقوم على دعامتين أساسيتين من اجل إخراجه مسرحا يكون على قدر كبير من الأهمية، ويستطيع بذلك أن يخدم القضايا التي قام من اجلها.

وأولى هاتيك الدعامتين: المخيلة العقلية، أو ما يسمى بخيال الكاتب وفكره. وهو الشيء الذي يعمتد بالدرجة الأولى على المحصلة الثقافية - إضافة إلى حساسية في الشعور والحساسية في العواطف والوجدان - التي يتسلح بها الكاتب / المخرج قبل الخوض / الدخول في أية معركة مسرحية كتابية / إخراجية، سواء كان هذا الخيال يميل إلى البساطة والمعقول، أو يجنح إلى الفنتازيا والميتافيزيقا العميقه. ويأتي دور الخيال على شكل بلورة ذهنية / شعورية في دماغ الكاتب / المخرج، وإحساسه للفكرة التي يريد طرحها في مسرحيته، تارة عبر اسلاك المخيلة العقلية والمشاعر الوجدانية، لتقوم بعد ذلك بعمليات انفصال وتفاعل في المعمل الفكري / الوجداني لهذه الفكرة، حتى بالتالي تتجسد هذه الفكرة ممتزجة بالخيال والفكر و الوجدان، إلى واقع حي يدب على ارض الواقع من خلال شخصيات يرسمها الكاتب / المخرج بدقة متناهية وعناية فائقة تتلائم مع الحدث المسرحي، وموصله في النهاية إلى الغاية والهدف الذي أراد الكاتب / المخرج ايصالهما للمتلقي.

أما ثاني الدعامتين فهي الواقع، والذي يعتمد على المشاهدات الحية والصور الحياتية المادية، وما لها من انعكاسات سلبية كانت أم ايجابية. فهذه المشاهدات لا بد لها من العبور بعالم الرؤية وهي متجهة صوب العقل والقلب، لكي تبدأ داخلهما عملية التأثر بها، لتصبح - فيما بعد - انفعالات وجدانية ومشاعر عاطفية فياضة، تأتي على قدر عملية التفاعل والتأثر التي تكمن في نفس ذات الكاتب / المخرج المتأثرة بحسب إحساسه بهذه المشاهدات والصور الحياتية ومدى اقتناعه بها، ليشكلها بعدٍ هذا الجهد الفكري / الوجداني عملاً مسرحياً باسلوب فني عالي القيمة في التعبير، ومناسباً للرؤية الفنية الإبداعية.

المسرح نحو الإصلاح والتغيير

إن كثيرا من الأدباء وكتاب المسرح في العالم، يعتبرون الفن المسرحي من أقوى الفنون قاطبة في فعاليته ومدى تأثيره على النفس البشرية، وذلك من خلال تعامله مع مشاكل الإنسان العصرية وقضاياه الحياتية التي تؤرقه ليل نهار، باسلوب فني جمالي، يجمع بين دفتيه الإمتاع واللذة من ناحية، ومن ناحية أخرى الرسالة والهدف التي يختزنها في مضامينه المقدمة عبر عروضه المتعددة، وبالتالي يصل - هذا الإنسان - إلى الكيفية التي يحل بها معضلاته المعيشية وقضاياه الإشكالية في المجتمع و الحياة.

فمن هنا - ولا غرابة إذن - أن يعتبره، هؤلاء الكتاب والأدباء من أنجع الأدوية بين الفنون قاطبة وأفضلها لشفاء الجنس البشري - في كافة المجتمعات والأمم - من تخم الهموم الحياتية مهما كان زخم هذه الهموم وفعاليتها المؤثرة على النفس البشرية. وهذا الدواء الناجع، يتمثل في حض الملتقي / الجمهور ودفعه على التأثر والتفاعل مع الافكار المطروحة من قبل الكاتب / المخرج على لسان شخصياته، والتي تناقش - في بعض جوانبها، إن لم يكن جلها - إحدى قضايا المجتمع على اختلاف أنواعها وتعدد أشكالها. فالكاتب / المخرج المسرحي، إذ يطرح أفكاره من خلال تقديمها عبر منظومة العرض المسرحي، فإنما هو يضعها على مائدة البحث، غير فارض لرأي محدد حول كيفية التعامل مع هذه الأفكار وطريقة حلها، إن كانت تطرح إشكالات حياتيه أو تعقيدات مجتمعية، بل يترك الكرة في ملعب الجمهور، وخاصة الجمهور المعني بالإصلاح والقادر على اتخاذ القرار وتنفيذه، حتى يتفاعل مع ما طرح من أفكار، ثم يتأمل بها ويحللها بشكل منطقي وموضوعي، مجرٍد من أي هوى أو عصبية، وصولا - في نهاية المطاف - إلى رؤيا واضحة تقود إلى الإصلاح أو التغيير.

يقول مانفرد بابلهارتس مدير مسرح بون واحد أهم المؤسسين لمهرجان بون الفني في المانيا. يقول في مقال له تحت عنوان "الوعي الجماعي: لما نحن بحاجه إلى المسرح" المسرح يبرز التاريخ المكتشف أدبياً وكذلك تخيل المثالية، وفي المسرح مجال لأفكار جديدة، وهي ساحة لتصورات متباينة عن الحياة ومكان يفهم الإنسان سواه، ولكنه في الوقت نفسه مكان يمثل فيه الغريب المستغلق. وهو أيضاً مختبر للخيال الاجتماعي، ولا غنى لنا عن المسرح في أوقات الأزمات باعتباره مجالاً نتأمل فيه أنفسنا وأوضاعنا على الملأ. ولعل الكاتب الفرنسي إميل زولا (1840– 1903) على حق في ما يطالب به بخصوص تحويل المسرح إلى معمل لدراسة الحياة، حيث يمكن رؤية دوافع الناس وسلوكهم بمنتهى الموضوعية والبساطة، وحيث يمكن طرح الحالات المرضية أمام الجمهور بنفس الانفعال العملي الذي يتمثل في قاعة المحاضرات ولكن بمزيد من الوضوح والحيوية. وحيث تنصب الدراسة التحليلية على قطاع الحياة الدرامي.

نعم إن المسرح عبارة عن مختبر تحليلي ومشرحه نفسية، تعني بدراسة النفس البشرية وسلوكها، كما يذهب إلى ذلك الكاتب (إميل زولا) فمن خلال هذه المشرحة النفسية نتعرف على أوجاعنا ونتحسس مشاكلنا بيد العقل ومطبع الفكر، حتى بالتالي نستطيع إيجاد دواء ناجع يتناسب مع هذه الأوجاع والمشاكل، لنصل في النهاية إلى مجتمع ذي جسم سليم معافى من أي مرض إنساني.

(الأسبوع المقبل: المسرحيون والإصلاح وأجيال المسرح في العالم العربي)

× مخرج وممثل مسرحي من فلسطين

فريق «بونكيو في العيزرية» يحمل محمد الدرة إلى اليابان

مهند صلاحات*

يستعد فريق المسرحية الفلسطينية "بونكيو في العيزرية" للانتقال من العاصمة اليابانية طوكيو حيث قدموا ثمانية عروض لهم فيها، إلى مدينة "نوكويا" لتقديم ثلاثة عروض أخرى، حاملين معهم أسطورة الطفل محمد الدرة بشكل درامي ليتم إحياء ذكرى استشهاد الطفل في مدينة غزة، والتي شاهدها العالم على شاشات التلفزيون، وكشفت حجم الهمجية والعنصرية التي يتعامل بها الإسرائيليين مع الشعب الفلسطيني، ومن هنا كانت الفكرة التي أنطلق بها الفريق المسرحي.

والفريق الذي يتكون من الفنانين الفلسطينيين: ريم اللو، ونضال مهلوس، ونضال الخطيب والطفل عز الدين علي احمد، والموسيقي نبيل الراعي، قدموا ثمانية عروض مسرحية في العاصمة اليابانية طوكيو بعد افتتاح العرض في السابع والعشرين من شهر سبتمبر- أيلول الماضي، شاركهم فيه كذلك مجموعة من الفنانين المحترفين اليابانيين، حيث جاء العرض النص مزيج بين لغتين العربية واليابانية، من اجل كما يسميه فريق العرض ولادة لغة ثالثة، هي لغة الحب والحلم والمقاومة المستمرة .

وجاء العرض بعد زيارة من قبل فنانين من اليابان إلى فلسطين المحتلة قبل عدة سنوات، في زيارة جاءت للبحث عميقاً في فلسطين الأرض والإنسان ولغز الانتفاضات المستمرة من اجل الحرية والاستقلال، ومن ثم جاءت فكرة العمل؛ حيث كتب المخرج الياباني "سوي راوسو" نصاً عميقاً وشاعرياً، حول أسطورة استشهاد الطفل محمد الدرة.

أما فكرة العرض فيقول الفنان نضال مهلوس أن فكرة ترجمة النص المكتوب لعرض جاءت بناءً على تعاون مشترك وتنسيق تام ما بين رابطة المسرحين الفلسطينيين، ومسرح كرفان فلسطين استمر لسنوات، حيث تم التدرب على العمل في طوكيو العاصمة لمدة ثلاثة أسابيع كاملة في ظروف صعبة، ولكن هذا المخاض انتج طفلا وسيماً وملائكياً عميقاً، ووطنيا من الدرجة الأولى. وحضر العرض عدد كبير من الجمهور الياباني وللمرة الأولى منذ سنين كان عدد الحضور مرتفع للغاية، حسب قول اليابانيين.

ويستعد الفريق الآن لنقل الخيمة المسرحية إلى مدينة "نوكويا" لتقديم ثلاثة عروض ومن ثم ستسير القافلة إلى مدينة "كيوتو" التاريخية، حيث سيزرع الفلسطينيون في مكان العرض بعد نهاية العرض الأخير شجرة زيتون في المكان، لتلتحم الذاكرة والأثر الفلسطيني وذكرى الفتى المغدور محمد الدرة في اقدم مكان في تاريخ اليابان في مدينة كيوتو العريقة .

* صحافي أردني